

تفسير سورة الفتح

روى الإمام أحمد عن معاوية بن قررة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها، قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته. أخرجه من حديث شعبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نحر ﷺ هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ أي بيناً ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتعلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنَبِّئَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة ﴿وَيُنَبِّئَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم، والدين القويم.

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾﴾

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله عز

وجل إلا رفعه الله تعالى» وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله تبارك فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُودٌ أَسْمَوَاتٍ
وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي جعل الطمأنينة، وقيل: الرحمة، وقيل: الوفاق في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب. ﴿وَاللَّهُ جُودٌ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ﴾ فلو شاء الله لانتصر من الكافرين إذ لو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، والبراهين الواقعة، ولهذا قال جلت عظمته ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ
وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويستر، ويرحم ويشكر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ كقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَنَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ
السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَنَ السُّوءَ﴾ أي يهتمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

﴿وَاللَّهُ جُودٌ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

ثم قال الله عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿وَاللَّهُ جُودٌ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٨﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا ﴾ أي على الخلق ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أي للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي للكافرين .

﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿٩﴾

﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تعظموه ﴿ وَنُقِرُّوهُ ﴾ من التوقير، وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي تسبحون الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۗ

وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿١٠﴾

ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: 80] ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطه رسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرَأْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 111] .

روى ابن أبي حاتم: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله» وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر «والله ليعتنه الله عز وجل يوم القيامة، له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى». ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثواباً جزيلاً، وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وثلاثمائة. عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى روي كلهم. أخرجاه .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم

الرسول ﷺ، وذلك قول منهم، لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَا سَيِّئُهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَوْلٌ مِّنْ يَمِينِكَ لَكُمْ مِّنْ أَلَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ اللهُ فيكم، تعالى: وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتُمونا ونافقتُمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمَّ أَبَدًا وَرِزِقَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَّنْ أَسْوَأُ مِنَّا وَمَا كُنْتُمْ قَوْمًا بِرُءُوفًا﴾ (١٢)

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمَّ أَبَدًا﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر ﴿وَلظننتم ظننا أسوأ مننا﴾ وكنتم قوما بؤرا أي هلكى، أو فاسدين.

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣)

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (١٤)

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السماوات والأرض ﴿يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لمن تاب إليه، وأتاب، وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُحْسِدُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥)

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجادلتهم ومصابرتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدرأ، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وعد

الله أهل الحديدية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونَا﴾ أي أن نشركم في المغانم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ آوَلَىٰ بِأَسِ شَدِيدٍ تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٦﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال: أحدها أنهم هوازن، الثاني أنهم ثقيف، الثالث بنو حنيفة، الرابع هم أهل فارس، أو هم فارس والروم، أو هم أهل الأوثان أو هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة، وهو اختيار ابن جرير، وبه يقول ابن جريج. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف، كأن وجوههم الميجان المطرقة» قال سفيان: هم الترك. رواه ابن أبي حاتم، وفسر أبو هريرة رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ «تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر» قال: هم البارزون يعني الأكراد. وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ يعني شرع لكم جهادكم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصر عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال، بل باختيار. ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أي تستجيبوا أو تنفروا في الجهاد، وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ يعني زمن الحديدية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ بَحْرِيٍّ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٧﴾

ثم ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد، فمنها: لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً، ثم يزول فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعداء اللازمة حتى يبرأه ثم قال تبارك وتعالى: مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ بَحْرِيٍّ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وعدتهم ألف وأربعمائة، والشجرة كانت سمرة بأرض الحديدية. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير المستمر المتصل بفتح

خير وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَغَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٩)

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَغَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٩)، روى ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس، قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18] فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت، ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف».

﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ

آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢٠)

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني فتح خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحریمكم ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى: حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين، وإن كرهوه في الظاهر، كما قال الله عز وجل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216] ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره، واناةكم طاعته، وموافقتمك رسوله ﷺ.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١)

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١) أي وغنيمة أخرى، وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها قد يسرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى: يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون، وعن ابن عباس: هذه الغنيمة هي خيبر، وقال قتادة: هي مكة.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرُ لَمْ يَجِدُوا إِلَيْنَا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢)

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرُ لَمْ يَجِدُوا إِلَيْنَا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣)

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) أي هذه سنة الله وعادته في خلقه. ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر ورفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى: يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم الله على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤)

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ . . .﴾ هذا امتنان من الله تعالى: على عباده المؤمنين حين كفف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفف أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة. روى الإمام أحمد لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا، فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية. ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ

مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَآ تَعْلَمُونَهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتِكُمْ مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِمَ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥)

يقول تعالى: مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيتهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتن إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم، وأبدتم خضاراًهم، ولكن بين أفئدتهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لَآ تَعْلَمُونَهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتِكُمْ مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِمَ﴾ أي إثم وغرامة ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لسلطناكم عليهم فقتلتموهم قتلاً ذريعاً.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ لَأَنزَلَنَّ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ لَأَنزَلَنَّ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ وهي قول «لا إله إلا الله» ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ قَرِيبًا ﴿٦٧﴾﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك. وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح، ورجعوا عنهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة، رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتية ومطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً حذو الغذة بالغة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي في حال دخولكم ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه، ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله. قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة، أو الرابعة. ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة، ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿قَرِيبًا﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨)

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي بالعلم النافع، والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق، وإنشاءاتها عدل. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي أنه رسول الله، وهو ناصره.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا يَتَّخُونَ فِضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّعًا أَخْرَجَ سَطَكُهُمْ فَتَازَرُوهُ فَاسْتَعْلَفَ فَاسْتَوَىٰ عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩)

يخبر تعالى: عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم نثى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، براً رحيماً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكفار، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا يَتَّخُونَ فِضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب وهو الجنة ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يعني السمات الحسن، أو الخشوع والتواضع. قال أحدهم لمجاهد: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أسمى قلباً من فرعون. وفي الحديث «من كثرت صلواته بالليل حن وجهه بالنهار» رواه ابن ماجه. والصحيح أنه موقوف ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ إذ نوهت بهم الكتب المنزلة، والأخبار المتداولة. ﴿وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّعًا أَخْرَجَ سَطَكُهُمْ﴾ أي فراخه ﴿فَتَازَرُوهُ﴾ أي شده ﴿فَاسْتَعْلَفَ﴾ أي شب وطلال ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله آزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطاء مع الزرع ﴿لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك في رواية عنه بتكفير الذين يبغضون الصحابة وواقفه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضل الصحابة، والنهي عن التعرض لهم بمبادهيم كثيرة. ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾. (من) هذه لبيان الجنس ﴿مَغْفِرَةً﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل. وكل من اقتنى أثر الصحابة فهو في حكمتهم، ولهم الفضل والسبق. وفي الحديث: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».